بعد الخمسين عرف طريقه!

محمود الربيعي: البطل في الظل

عبد المنعم رمضان *

■ أستهل وأقول هذه هي المقالة كاملة دون نقص أو اعتداء جهول، أعاود استهلالي وأقول قابلت الدكتور محمود الربيعي مصادفة وعلى غير موعد، مرتين، أولاهما في نهاية التسعينيات، يوم أن قدم الشاعر أدونيس محاضرة دارت حول معنى الثقافة، كنا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، بالضبط في القاعة الشرقية وبيننا منظمو اللقاء أساتذة الأدب العربي بالجامعة، فتن أدونيس الحاضرين من خصومه ومحبيه عندما قرأ قصيدته «أول الكلام» بمزاج داخليٍّ عالٍ، وفصاحة أصبحت نادرة بين الشعراء، فاكتشفنا نحن الحضور أننا نقف ونجلس متجاورين تحت شجر الحب، وافترقنا غابة أحزان على حافة الأرض، وكان الربيعي بنحوله وارتفاعه أحد أشجار الصف الأول من الغابة. قابلت الربيعي ثانية في ساقية عبد المنعم الصاوي، والساقية مكان يقع على نيل أبي الفدا، في رواية قديمة نيل أم كلثوم، وسقف المكان أرضية الكوبري المعلق هناك، كانت الساقية ذلك اليوم تحتفل بصديقي السوداني المصري النمساوي المغترب طارق الطيب، وذلك اليوم يعني يوما من أيام بدايات عام 2005. وعقب كل لقاء من اللقائن، وصلتني من الدكتور الربيعي رسالة. في المرة الأولى حملت الرسالة كتاب «في الخمسين عرفت طريقي» وفي الثانية حملت رسالته الكتاب ذاته، ويرفقه كتاب «بعد الخمسين» والكتابان معا يكونان سيرة ذاتية غير كاملة، آمل أن أقرأ في مستقبل الأيام «ما بعد البعد».

أذكر أن كتابه «في الخمسين عرفت طريقي» لم يستقر في حوزتي أياما، لأن أحد الأصدقاء طمع في قراءته، وها هو الدكتور يعوضني عما فقدته وبعد أن شرعت في قراءة الجزء الأول، بدأت تتسرب إلى نفسي روائح وطعوم أدركت أنها روائح حلاوة الهدية وطعومها، حلاوة التجلي الأول، ثم حلاوة تجلي ما بعد الخمسين، وعليه فإنه يجوز لي الآن أن أتذكر سنوات الجامعة، أوائل السبعينيات، أتذكرها بريق حلو، ولعاب غزير. كان اليسار أيامها نشطا ويملأ هواء الثقافة ببخار أنفاسه المتلاحقة، ويعكف نقاده الأدبيون على قراءة الشعر وتفسيره وتوظيفه، ويعكف أكثرهم ذيوعا وأشدهم ستالينية على إفساده، كذلك كان يفعل مع الرواية، ولم يستطع رشاد رشدي أحد دعاة النقد الجديد، فيما بعد سوى ان يسمي مجلته «الجديد» وسوف يقول له الشاعر أحمد حجازي: «قديمة يا دكتور»، وسوف يصبح تلاميذه حكاما للثقافة الرسمية يفسدونها ويفسدون صورة النقد الجديد، أقول لم يستطع رشاد رشدي أن يحظى بالتقدير، مما جعل مدرسته النقدية محجوزة في زاوية صغيرة يحاصرها حضور محمد مندور، ثم يحاصرها الواقعيون الاشتراكيون في أحسن التسميات والواقعيون الستالينيون في أسوأها، وكان نجيب محفوظ برواياته الجميلة يمثل الساقية التي تحرص أن تديرها بعض ثيران اليسار، فتضخ ماءً مالحاً يقتل بقية المزروعات ولا يسمح لغير النباتات الشوكية والصبار بالنمو. كانت طوائف أخرى من اليسار، طوائف تحترم الأدب ولا تراه خادما لأية حتمية، تكتفي بأن تظهر امتعاضها لأنها لا تملك وسائل النشر لوجهات نظرها البديلة. وطوائف ثالثة، من كتاب الستينيات تنفخ هواء جديدا يشغّل الطواحين التي تنزف أوراق شاب عاش منذ ألف عام، وبحيرة المساء، والخطوبة، والزيني بركات، ومالك الحزين، والبساطي وغالب، ونعمان عبد الحافظ، والزعفراني وغيرهم.

في سنة 1974 تحديدا لجأنا، أنا وصديقي الشاعر المغبون محمد خلاف إلى كتاب أصدرته دار المعارف، كانت طبعته الثانية أقرب إلى الملاذ، وقرأنا معا مقدمته التي فتنتنا وساعدتنا على أن نرى روايات نجيب محفوظ تتحول من ساقية تُديرها بعض الثيران لحسابها، إلى عالم فسيح أليف يسكنه كل البشر. كنا نهرب من ذلك الجحيم اللافح، جحيم التأملات في عالم نجيب محفوظ الذي يتعنت ويشوي الأسماء والأماكن، قد يتركها على النيران حتى تتفحم فيسهل تأويلها تأويلا أيديولوجيا ضيق الأفق واسع الانتشار، المشربية والشباك والسطح ونور وزهرة وصابر الرحيمي، كنا نهرب من ذلك الجحيم إلى لوكاندة الفردوس المسماة عمدا «قراءة الرواية» وخاصة المقدمة. الاسم لم يكن معتادا بعد، والقراءة كانت لستّ روايات هي اللص والكلاب، والسمان والخريف، والطريق، والشحاذ، وثرثرة فوق النيل، وميرامار، وتسهيلا على عشاق المراحل، كانت روايات ما بعد مرحلة الثلاثية، ليس باعتبارها وحدة واحدة، ولكن باعتبارها ست روايات فتشت ووجدت المؤلف، كان محمد خلاف يعشق الظل، ولا يحب أن يخرج منه، وكنت مثله أعشق الظل، وأسعى كي أخرج منه، ووجدنا في مؤلف قراءة الرواية مثالا جديدا للبطل في الظل، يحبه، أعني الظل، حتى أنه لا يخشى الجلوس تحت نخلة نجيب محفوظ، ولا يهمه ماذا سيحدث بعد سقوط حجارة صيّادي البلح فوق رأسه، وماذا سيحدث بعد سقوط البلح، وماذا بعد إغفال من يطوفون بالمكان له، أو اهتمامهم به. كانت مقدمة قراءة الرواية، فاتحة تحاول أن تخلص أدب نجيب من ضرر الأحكام العامة، ومن ضرر المواقف المتطرفة، ومنحت الأولوية لمحاولة التعرف على هذا الأدب قبل كل شيء، التعرف على خصائصه والعلاقات التي تربط بين عناصره وتصميمه الفني حتى ولو انتهى كل ذلك إلى أحكام ليست في صالح هذا الأدب. كانت المقدمة فاتحة تحاول أن تتخلص مما يعاني منه أدب نجيب محفوظ، أن تتخلص من النظر إليه كثيرا باعتباره أفكارا وآراء ووجهات نظر، لا باعتباره قوالب فنية. شغلتنا المقدمة وزهونا بها، كنا أنا ومحمد خلاف الشاعر المغبون نستعيدها، محمد خلاف المريض بكراهية أيديولوجيا فرع اليسار جهير الحنجرة عاليها والذي كان يحكم الحياة الثقافية ويتحكم بشعاراته وسياطه وصياحه ومصالحه، وأنا المريض بالميل نحو يسار غير مطمئن، يسار لا تحكمه أناجيل وكتب مقدسة، يسار تجريبي كتابه محبطون أحيانا وفنانوه حمقى، فيما بعد سوف يساعدنا بشير السباعي على قراءة جورج حنين ورمسيس يونان وجويس منصور، وسوف يساعدنا كميل قيصر داغر وآخرون على قراءة الثورة والأدب، والثورة والحياة اليومية. كان يساري الذي يخصني يسارا مشبوها ونقيا، بعد مقدمة محمود الربيعي بحثنا عن كتبه الأخرى، ولأننا في أطوار تكوين، وننشد المعرفة ربما كخلاص، وننجذب إلى الغرب الذي نجهل لغاته، ولا نريد أن نجهله، ونتوق إلى لمسات أصابعه، كنا ممسوسين، نسأل حتى عن جيمس جويس وفرجينيا وولف، قرأنا كتاب «تيار الوعي في الرواية الحديثة»، ألفه روبرت همفري، وترجمه الربيعي، ثم قرأنا «الصوت المنفرد»، لأوكونور والترجمة لصاحبنا، وكذا حاضر النقد الأدبي، مقالات مترجمة، أتذكر الآن أنه اشتمل على مقالة كتبها إمبرتو إيكو الذي سيصبح بعد عشرين سنة، أي في أواخر التسعينيات، اسما لامعا ومطلبا عزيزا لدى جماعات المثقفين. قرأنا أيضا مختارات الربيعي وبعض نصوص النقد العربي، الغريب أننا كشعراء تحاشينا كتب الربيعي عن الشعر، هل كنا نخشى أن نختلف معه، أن نفقده؟ رأيناه يحب شعر شعراء لا نثق في حُسْنهم، فانصرفنا بعيدا عن تلك الخيمة، واكتفينا ببقية الخيام، صحيح أن مجموع مؤلفات محمود الربيعي قد لا يتجاوز خمسة عشر كتابا، ونحن قد لا نعرف سبب هذا الإقلال، يقول هشام شرابي في صور الماضي ما يعلل قلة إنتاجه، يقول: «أفكاري تتنقل من موضوع إلى موضوع، تقفز كالعصافير من غصن إلى غصن دون كلل أو تعب، فأحاول اللحاق بها. ولأني أكتب ببطء ولا أستطيع الإمساك بها أحيانا، لا اعرف كاتبا أبطأ مني فيما أكتبه إلا صديقي ياسين، فإنتاجه لا يتعدى بضعة أسطر في اليوم، غير أني لا أحسد الذين يكتبون بسرعة، هؤلاء لا يأتيهم الوحي إلا باحتساء القهوة المرة وتدخين السيجارة تلو السيجارة. السريع في الكتابة هو الذي يمتطي الكلمات كما يمتطي حصانا جامحا يسير به في الاتجاه الذي لا يختاره، أما الذي يكتب ببطء مثلي، فيصارع الكلمات وهي تصارعه إلى أن يخضعها أو يترجّل عنها، ويجد غيرها، فيلجمها أو يتوقف عن الكتابة». انتهى كلام هشام شرابي، أحسب أنني قبلته كتفسير لحالة محمود الربيعي، ومع انقضاء فترة الجامعة وحقبة السبعينيات، وسقوطنا في حمأة الصراعات الشعرية والعقائدية، وسقوطنا في حمأة ذواتنا، وهي حمأة اكتشفت أن غبارها لا تسيغه سليقة وفطرة الدكتور الربيعي، إن الرجل الذي يعشق الظل، امتصه الظل، فغاب عني، أخذتني الصراعات في طرق أخرى، وابتعدت عنه ما يقرب من عقدين، كانت آنذاك منارات تقوم، ومنارات تسقط، وشعارات تتبدد، وأخرى تتجدّد، وأسماء تبزغ ومعها أدوات جديدة تبزغ، وأسماء تصدأ ومعها أدوات تصدأ. لقد رأينا أكثر من موت، ورأينا أكثر من قيامة، وبعد اشتداد الصخب والعنف وبعد انفضاضهما قابلت نفسي، وتعرفّت على أنها كانت دائما تطلب الإقامة في الظل، وأن تلك السنوات خروج لأبتعد عنها، وأفارقها مؤقتا، وأتذوق حكمة المتصوفة «ابتعد لتقترب». أثناء هذه الحالة وقفت سيرة الربيعي «جزؤها الأول» في طريقي، وأهملتها ففقدتها، كنت مشغولا بالعودة إلى نفسي، وبعد أن تطامنت وغلبتني الأشواق، وقفت في طريقي سيرة الربيعي بجزأيها، كانت السيرة تطلب أمن الداخل، وكنت أطلبُ أمن الداخل، وكان ما يطلبه الربيعي فوق المعرفة وفوق المال وفوق الجاه، وكنت كذلك، كان يحب محمد عبد الوهاب والشيخ مصطفى إسماعيل والمتنبي، وأنا أحبهم. كنت أقرأ السيرة فتطفو على سطح ذاكرتي كلمات العقاد عن طه حسين، عن كتاب طه حسين المدعو «في الصيف»، أعلم أن الربيعي لم يأنس إلى العقاد، ولم يألفه، ولم يشأ أن يقترب من ظلاله. يقول العقاد: «وطه حسين كاتب مستقيم الفطرة إن لم يكن في فطرته عمق وخيال، قوي الرأي وإن لم يكن رأيه بالواسع المتعدد الجوانب، نشأته أزهرية وهي نشأة يستفيد منها صاحب الطبع القويم جداً وصرامة لأن التعلم في الأزهر مشقة لا يسهل فيه اللعب والاستخفاف، والعلوم في الأزهر علوم تحوطها قداسة الدين فلا يقاربها التلميذ وفي نفسه خشوع وتوقير». ما قاله العقاد عن طه حسين ينطبق في بعضه على الربيعي، كما لا ينطبق بعضه على الآخر، ولكنه رأي يطفو على سطح ذاكرتي، فيعينني على الرحلة. حرص الربيعي على ألا يدخل صفحات السيرة قبل أن تدخل قريته كلها، قرية الدميرة، محافظة سوهاج، دخلت بفصولها الأربعة وأفراحها وألعابها ومواليدها وشيوخها وبعض من نسائها خاصة المحارم، مازلت أذكر كيف قذف الدكتور باسم خطيبته ليتخلص من عبء الحيرة بين النطق به والصمت عنه، هكذا يقول: عُيِّنت معيدا بقسم الأدب، وتقدمت لخطبة نبوية الترزي، بعدها سمعت تنهيدة الربيعي ولمحت عرقه يرفرف فوق وجهه، وسوف يحرص في الجزء الثاني على ألا يدخل صفحات السيرة قبل أن يدخل معهده العلمي «كلية دار العلوم»، ستكون وكالة الكلية وهما تحتله وتتحالف ضده الطبائع وصراعات الطبائع، محمولة على الأساتذة والطلاب والمكائد والفصول الساخنة والباردة. الدكتور الربيعي عاشق ظل يحب دخول كل مكان بغير أجراس ترن، سوف تمثل الدميرة وسوهاج وبعض أسيوط المثال الأول، أو قل المثال القريب من المثال، الذي لن يفتر وجوده أبدا أو قل مثال الفطرة، وكما كانت الفطرة فاتحة السيرة، سوف تكون خاتمة الجزء الثاني منها، على هيئة شخصيات في الظل، زهري جبالي إمام مسجد العائلة، محمد جمعة أول مدرب حساب، عبد اللطيف هرون أول مدرس مطالعة ولغة، محمد عبد المتعال عاشق الشعر، أحمد فرغلي ناظر المدرسة الإلزامية، محمد علي الصغير ابن الخالة ومعلم الثقافة الأول، على الرملي معلم القرآن، فتحي عبد المنعم مدرس الحديث في أسيوط، كلها أسماء تختم السيرة لكي تكون الكريشندو الذي يعزف موسيقى المثال القريب من المثال، حديقة الفطرة. هناك مثال ثان قريب أيضا من المثال سوف يخترق حياة صاحب السيرة ومعه تصبح الأماكن الأخرى إما أعرافا وإما شبه جحيم، إنه مثال التحول الكبير في الحياة، إنها لندن يا عزيزي، القرار الدائم لموسيقى يتكرر عزفها، مثال الحضارة. بندول الدكتور الربيعي يتأرجح بين المثالين، الفطرة والحضارة ويشتهيهما، الأصح يحبهما، لا يمكن أن نغفل ما قاله العقاد في معرض كلامه عن طه حسين، وعن أنه ليس كل كاتب بقادر على أن يلتزم الصدق والسهولة والإطراء المطبوع في وصف ما يقع له وتدور عليه حياته، فليس هذا بالمطلب اليسير على من لم يتعوده ويطبع عليه، والصدق والسهولة والإطراء المطبوع تظهر كلها في كتب الربيعي أحسن ظهور، وكأنها تذكرني الآن بكتابه قراءة الرواية، خاصة المقدمة. نعترف جميعا أن السيرة أفيوننا في اللحظة الحاضرة، وأن كتب السيرة أصبحت تزخم السلاسل وتملأ الأرفف، منذ وقت ليس قصيرا كتب الدكتور رؤوف عباس سيرته تحت عنوان «مشيناها خطى». كان الفساد الجامعي في سيرة رؤوف يزكم الأنوف فنعطس أما الفساد في سيرة الربيعي فقد يزكم الأنوف، ولكن جمال الكتابة وهدوء الطبع، وتواضع الكاتب، كلها أسباب تحمينا من أن نعطس. إننا نستمر في القراءة على طريقة أبي نواس، الدواء هو الداء، سيرة رؤوف سيرة شجاع، وسيرة الربيعي سيرة إنسان بسيط، الأسماء التي تظهر في سماء سيرة رؤوف أسماء أعلام يملكون أن يرفعوا ويخفضوا، فإذا امتدح أحدهم ارتجفنا، وإذا انتقص أحدهم ارتجفنا، والأسماء في سيرة الربيعي، أعلامها غير متحكمين، وبسطاؤها أغلبية. إنها سيرة لا تبحث عما يمكن أن تحققه بعد كتابتها، لا تبحث عن شهرة ولا عن حماية مصالح، تنبأت منذ نشر رؤوف سيرته، تنبأت أنها سوف تحظى برواج فهكذا يتم الرواج، مياه السياسة تحمل المراكب الصغيرة والقوارب إلى كل الأماكن، ورياح الأيديولوجيات المسيطرة البائدة، تسرع من سير هذه المراكب، عموما ليست سيرة رؤوف هي ما يجب أن ننشغل به الآن، ولكنني أحببت أن أسأل نفسي عن ذلك الكريشندو الممتلئ بشخصيات الظل في نفس يحيى حقي، فمنحها وجودا متفرقا في كتبه كلها، ووجودا مجسما في كتابه ناس في الظل. نعود إلى الربيعي وكتابه بعد الخمسين حيث يقول: «وبعد سبع سنوات أخرى عدت إلى إنكلترا، وكان القرن العشرون يلفظ أنفاسه، فقصدنا كمبردج، وأقمنا فيها فترة مليئة بالعمل والتأمل، وكمبردج كما هو معلوم مدينة جامعية.. ما عليكم إلا أن تتسمعوا إلى إيقاعها، وصلناها في أول شباط (فبراير)». هكذا يستمر الربيعي في الكتابة لمدة ثلاث صفحات، لكي نعرف ما كنا نعرفه، لكي نعرف أن «نا الفاعلين» ضمير متصل يعود عليه هو وزوجته، هكذا يكشف الصدق عن خصائصه وصفاته، وعن حسن المحافظة الذي لا يمكن أن تذم بسببه صاحب سيرة، لهذا عجبت أن رقة الرجل خدشتها خشونة كاتب ما لامه على أنه لم يكتب عن دورة مياه بيته، لم يكتب عن أسراره ومبازله وكأن السيرة محض أسرار ومبازل. إن استنساخ الحطيئة كي يظهر شبيه له في زماننا هو السبب، ومع الإلحاح على ان المقام الفني للحطيئة أعلى بكثير من مقام الكاتب اللائم شبيهه، إن الحطيئة في رأي أحدهم لم يكن صاحب خير وبر ووفاء، فالكلف به والانصراف إليه كلف بالشر وانصراف إلى من لا يستحق أن يعنى به إلا العلماء الذين يدرسون ويكشفون. وحديث الحطيئة في رأي آخر لا يثير ضحكا ولا ابتساما وإنما يثير في النفس رثاء وإشفاقا، فقد كان بائسا أشد ما يكون البؤس، محزونا كألذع ما يكون الحزن، مكتئبا كأقوى ما يكون الاكتئاب، ولو قد استقامت الأمور كما كانت تحب طبيعته أن تستقيم لكان خليقا أن يكون له شأن آخر. أقول ثانية لقد عجبت لأن رقة الرجل خدشتها خشونة شبيه الحطيئة سامحه الله. وها أنذا أتأهب لأكتب شيئا تسعهُ رقة الربيعي ودقته وتواضعه، فبمثل ما نكون تعاملنا الحياة، والحياة تعامل الدكتور في اعتدال وتهبه راحة البال. إن الجزء الثاني من السيرة «بعد الخمسين» بدا لي وكأنه أدنى مرتبة من الجزء الأول، هل لأن الأول هو الجزء المخصوص بالطفولة والصبا والشباب وأول الرجولة ومنتصفها، وهي بطبيعتها مراحل عمرية أجمل من المراحل التي تليها، ربما أكثر حيوية، وتقلبا ونشاطا، لم أستطع أن أطمئن إلى هذا السبب، هل لأن الجزء الأول هو الجزء الذي يخضع البطل فيه لسلطة يفكر في الخروج عليها، أو يخرج عليها فعلا، أو يتعود أن يألفها، أو يألفها، فيما يظهر البطل في الجزء الثاني مرتديا رغم أنفه لباس السلطة ذاتها، ونحن مجبولون ـ أظن ذلك ـ على كراهية السلطات، مجبولون على الشك فيها، وعلى منازعتها البقاء، والسلطة غالبا ما تسببت في طغيان اللون الرمادي على الجزء الثاني، لون الدفاع عن الذات والتفسير والتبرير، كان اللون في الجزء الأول أزرق سماويا، أو أخضر زرعيا، أو قوس قزح، لم أستطع أن أطمئن كليا إلى هذا السبب، هل لأن الجزء الأول يتناول تكوين الراوي، يتناوله بطرائق لم تخضع لموضوعية فاقدة الذمة، خضعت فقط للهواء الخاص باعتباره الذمة البديلة، الذمة الموثوق بها، أي أنه جزء يغلبه الصوت الخاص، الصوت الشخصي، بينما الجزء الثاني يتناول تطبيق القواعد العامة، والدكتور الربيعي يخرج من بحيرته الهادئة إذا جلس على ذلك المقهى، مقهى القواعد العامة، وفساد الجامعة، وفساد الأوساط الثقافية والمؤسسات الثقافية، واللجان والجوائز، لأن الفساد يستحق منا أن نذكر

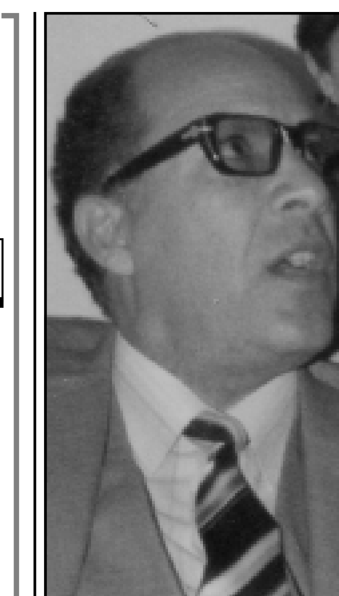
محمود الربيعي (صورة من الارشيف)

أسماء أبطاله، فالأسماء تجسيد لما هو مجرد، وتشهير ضروري لزعمائه وأوصيائه. إن عفة قلم الدكتور جعلته فسادا على جدار من ريح، فسادا افتراضيا، فساداً دون أشخاص نعرفهم جميعا، أعرف الأسانيد الظاهرة والخفية التي تفند مسألة ذكر الأسماء، وأعرف أنها إلى حد كبير أسانيد بروتوكولية. وعند خروج الدكتور من بحيرته الهادئة بدا وكأنه مصاب بالأنفلونزا الحادة، صوته تحشرج، وسقطت الصوفية العذبة من أعماق كلماته، لأنه داخل البحيرة يكون الدكتور على ثقة من الإجادة، ما دام لم يعرض لتطبيق القواعد العامة التي يطرقها الخطأ الكثير، والتي تمتلك حصانة لا تسمح باختراقها لمن لا يملك نظرية كاملة في الثورة عليها، أعني على القواعد العامة، بل نظرية كاملة في الثورة المضادة أيضا، لا تسمح له بإمكان اختراقها، ولا تكفي الآمال الطيبة والنظرات الخاصة في تحقيق ذلك. الفارس الذي يذهب إلى الحرب دون أسلحة الحرب، أكيد سينهزم وغالبا سيُقتل، وأمثال محمود الربيعي من الشرفاء يعصمون أنفسهم بمقدرة أكبر من مقدرتهم على كسر صدفة القواعد العامة، ولقد أصبح القابض على عصمة نفسه مثل القابض على جمرة، هكذا يكشف الجزء الأول «في الخمسين عرفت طريقي» عن انتسابه الحميم والعميق لفن السيرة. سألت نفسي لماذا يكتب إنسان ما سيرته، هل لأنه عاش حياة استثنائية تفرض عليه أن يعرضها، هل لأنه يريد أن يجعل من تجاربه ونجاحاته وخيباته مثالا يمكن الاقتداء به، هل لأنه يحتاج أن يدافع عن نفسه، هل لأنه بلغ سن الحكمة فلم يعد قادراً على الفعل وأصبح قادرا أكثر على التذكر وإعادة السرد، هل لأن حياته تمتلئ بالشاذ الذي لم يصادفه الآخرون، ولأن حجرات بيته تخلو من صالون واحد، كلها دورات مياه، لقد استغلظت الأسباب واعتبرت الكتابة معها فعلا نفعيا بشكل ما، في حين تزهر الكتابة عندما لا يكون النفع عضوها البارز. قلت لنفسي إن كتابة السيرة محاولة جمالية لحماية حياة كاتبها من الضياع، ينظر الكاتب إلى حياته فيراها في حالة سيولة، يراها ماء تتعدد مجاريه وفي كل اتجاه، ويفكر في تحويل هذه الحياة من حالة سيولتها إلى حالة الصلابة، يفكر أن يجعل لحياته شكلا، كنت أظن أن الذي يظل بلا شكل، يظل مائع الوجود، ولكنني الآن وفي حمأة اعتدال أقول إن الذي يظل بلا شكل، يظل مائع الوجود، والبحث عن كتابة سيرة هو البحث عن شكل، بل البحث عن شكل بغير مثال سابق، شكل يشبه صاحب السيرة ويخصه، و«في الخمسين عرفت طريقي» سيرة رجل عنده هذه المكلمة، عنده هذه العادة، فهو يجيد أحسن إجاداته حين يتناول ما تناوله في هذا الجزء، وحين يختار من الأصوات، ذلك الصوت الخفيض الحييّ الدافئ المتواضع، فينساب الصوت كأنه عجينة بيان وعرفان وعقل، وإذ يتركك تكتشف أنك تريد أن تغني أغنيتك، تريد أن تصاحب ظلك، تريد أن تنصرف وحيدا. تريد أن تهدي مقالتك كاملة إلى العسكري سليمان أو سليمان العسكري.. لا أعلم أيهما أصح، لا أعلم من الضابط الذي يحرضه ويوصيه ولا أعلم من الصبي المنفذ.

* شاعر من مصر

نابوكوف العربي.. ناقدا!

خيري منصور *

■ اقترن اسم نابوكوف كروائي بعنوان واحد، هو «لوليتا» الصبية التي تحول اسمها إلى مصطلح في علم النفس يضاف إلى إلكترا وأوديب، ولا أقصد من هذا العنوان استقصاء مواقف نقدية لنابوكوف، وقد لا أكون معنيا بذلك على الإطلاق، فما أعنيه بعبارة نابوكوف ناقدا، هو ببساطة، ما لم يكتبه مثقفون عرب تجاوزوا السبعين عن «لوليتات» تحت أسماء مختلفة، وليتهم فعلوا، لأنهم كانوا سيقدمون نصوصا شائقة لذوي الفضول، بقدر ما هي رافدة للنفساني في أبحاثه أو عياداته..

وحين فكرت لأول مرة بهذا العنوان، كنت قد فرغت للتو من قراءة أربع مقدمات، لقاصة شابة وروائيتين في مقتبل العمر والكتابة معا وشاعرة تلثغ بالديوان البكر..

في المقدمة الأولى، وصف المثقف الطاعن في الرغبة والكبت القاصة الشابة بأنها كاترين مانسفيلد العربية وأن الكشف عن موهبتها يحتاج إلى صبر ودأب لا يملكهما النقاد الشبان، أو نافذو الصبر الذين يبحثون عن قطوف دانية وليس عن براعم..

المقدمة الثانية تطوع بها مثقف آخر له عدة صفات، وهي لرواية يصعب انتسابها إلى هذا الفن، فهي تراوح بين البوح والسيرة شبه الذاتية، ولم يتردد نابوكوف الناقد في تصنيف الكاتبة التي لاذت به باعتبارها موهبة قد تتحول بعد روايتين أو ثلاث إلى عقبة يصعب اجتيازها أو إلى أفق روائي يتعذر اجتراحه..

والمقدمة الثالثة... لشاعرة حسم نابوكوف الناقد أمره منذ السطر الأول، وجعل منها توأما شعريا لإميلي دكنسون، ولم أشأ أن أتوقف عند مقدمة الرواية الثانية لأنها تكرار يتخفى وراء المترادفات، وعزف منفرد على الوتر ذاته!

* * *

نعرف بدءا أن الرجل العربي مُبْتلى مثل أنثاه وسائر الذكور الذين يمارسون مختلف المهن بمكبوتات لا آخر لها، بدءا من المكبوت السياسي وليس انتهاء بالمكبوت الجنسي، وهذا التوصيف ليس بحاجة إلى تبديد وقت إضافي أو جهد آخر للبرهنة عليه، مادامت كل القرائن تشي به، بل تفتضحه على نحو مباشر، وقد تكون الأعراف السائدة، وشحة الحريات سببا في تردد الكاتب العربي في ابتكار لوليتا من طراز ما، رغم أنه ينعم بحق يحسده عليه زملاؤه في العالم كله خصوصا غير الإسلامي وهو الزواج من أربع قد تكون آخرهن في العشرين إذا كان هو قد تجاوز السبعين!

و ما حدث بالفعل هو أن نابوكوف العربي هرّب هذه النزوة إلى مجال آخر، هو أقرب إلى التسفيل منه إلى التصعيد، والفضل في اقتراح مصطلح التسفيل هذا يعود إلى الناقد الحصيف جورج طرابيشي الذي تجاوز في أطروحاته النقدية الحواجز الرملية والخطوط الحمر، خصوصا عندما افتضح الإسقاطات الجنسوية في الرواية العربية على السياسة والاقتصاد والثقافة برمتها، والكاتبة العربية الشابة تحتاج إلى رعاية من نوع آخر، غير هذا التدليك النابوكوفي لنرجسيتها خصوصا في البدايات، فهي أحوج إلى اكتشاف الأخطاء، ونقاط الضعف في نصها، بحيث يصبح تدليك نرجسيتها الأنثوية في سن مبكر بمثابة التواطأ البالغ مع أخطاء هي بأشد الحاجة إلى تخطيها والتحرر منها، وحين يكتب نابوكوف عربي مقدمة أو مقالة عن نص بكر لكاتبة شابة، فهو يتناسى النص ويجد نفسه في غمرة الكتابة عن جسد ما أو عن كينونة لم يبلغه منها غير الحفيف، عندئذ، يصبح ما كتبه مصادرة وإجهاضا مبكرا لكل نقد لاحق، وتتورط الضحية بفكرة عن الذات تؤدي إلى إحساسها بالمعصومية، وعدم قبول أي نقد من أشخاص أقل شهرة ونفوذا أو حتى أصغر سنا!

والمتوقع عادة من امرأة تستشعر حريتها وبالتالي استحقاقاتها الإنسانية أن تئد هذا الحب الأنكى من الكراهية، وأن تشعر بأن السوط الذي جلدت به جدتها قد يكون من جلد البقر.. لكن السوط الحديث الذي تجلد به من الحرير.. والانحياز للأنوثة المفترى عليها تاريخيا لا يكون بالممالأة أو بالإسقاط الرغائبي، إن له أساليبه الأخرى التي باتت المرأة الحرة تعرف كل شعابها، بعد أن تلقحت ضد هذا اللدغ الناعم وكما قاومت المرأة المثقفة الحجرة شعر الغزل لأنه يلحقها باسطبلات الأفراس، قاومت أيضا ذلك النمط من المقدمات الأشبه بالأفخاخ، فهي لا تسعى إلى أن تصطاد بأنوثتها مقالة ذكورية أو مقدمة أشبه بالرشوة، ولكن التاريخ كان وما يزال الأقدر على تقديم الأمثلة وتحويلها أحيانا إلى أمثولات، فالنساء اللواتي وقفت زميلاتهن وبنات جنسهن من رائدات التحرير والانعتاق من بيوت الدمى كن أشد عنفا وراديكالية من الذكور، وهنا يمكننا أن نجزم بأن التصنيف التقليدي للنقائض ليس صحيحا، فالديكتاتورية مثلا ليست نقيض الديمقراطية بل نقيضها الحقيقي هي الديمقراطية الزائفة. ونقيض الحداثة ليست الكلاسيكية بل الحداثة الشائهة عديمة الجذور والملفقة من نتاج الآخرين حتى لو كان مجرد غبار، وبالمقياس ذاته نقيض المرأة الحرة ليس أمها أو جدتها، بل ابنة جيلها التي توهمت بأن الحرية هي الانخلاع التام، وبالتالي إعلان الحرب على الروادع والكوابح، حتى ما كان منها وثيق الصلة بالذات وكرامة هذه الذات وما يقيها من التلاشي والذوبان.

* * *

أذكر أن امرأة عربية غردت ذات ربيع خارج السرب، وقالت ان نزار قباني ليس المحامي الشعري الصالح للدفاع عن حريتها، كان ذلك تعليقا على ديوان يوميات امرأة لا مبالية للشاعر الراحل نزار قباني، ولأن معظم من سمعن رأيها المغاير بل المضاد سخرن منها، أصرت على أن حريتها لن تكون مكرمة من ذكر، وكان علينا أن ننتظر بعض الوقت لنكتشف أن حرية المرأة ليست تلك الحزمة من الإكسسوارات التي تعج بها مدن لم تحرج منها القرى..

وأخطر ما في هذا الأمر ولعله الدافع الذي لم نستطع صده لكتابة هذه التداعيات التي قد تتعرض لسوء فهم، أن هناك مفاضلة لا أساس لها من الإبداع قد تمت خلال ثلاثة عقود بين مبدعات أصيلات لا يبحثن عن نابوكوف يمنحهن تأشيرة الدخول إلى نادي الثقافة، وبين كاتبات يمتلكن بدائل للموهبة الأدبية لها تجليات يصعب حصرها، وقد تبدو هذه المساحة التي نتورط بالاقتراب منها محظورة، وشائكة لأن التهم جاهزة لمن يجازف بالاقتراب منها، ما دامت فلسفة التواطؤ قد تحولت إلى أيديولوجيا وما دام الصمت في حالات كهذه هو الأسلم والأدعى للنجاة.

* * *

قبل عام واحد دار حوار عابر بيني وبين كاتبة شابة حولت مقدمة نابوكوفية إلى منشور، وكانت نافدة الصبر، بحيث لم تتح لي إكمال جملة مفيدة واحدة، فقد ضربت غلاف الكتاب بكفها، وهي تقول.. أنت أعلم من هذا الرجل الذي كتب عني ما كتب.

و لأن الرجل لذي كتب كان قد رحل عن عالمنا فلم أرد بيني وبين نفسي سوى عبارة رحمه الله.. فقد جنى على هذه المسكينة، ولن تصحو إلا بعد كتاب آخر، سيكون أصلع الرأس وبلا مقدمة أو عكاز،

لماذا لا يجهر نابوكوفات العرب، سواء كانوا شعراء أو نقادا أو روائيين أو صحفيين برغائبهم؟ ولماذا لا يكتبون ما يدور في خلدهم على نحو مباشر؟

لماذا يسددون مديونية الكبت بهذا الربا الأخلاقي والمعرفي؟

كم كنا سنكسب منهم روايات وكتابات مفعمة بالشهوة وتسديد الديون لو أنهم طرقوا الأبواب لا النوافذ، ولم يسعوا إلى هذا التهريب الذي أصاب كالحجر الثقيل الصقر والحمامة معا، أي النص وصاحبه!

ان سايكولوجيا القهر ذات محاصيل يحتاج رصدها إلى جملة من الإنجازات، سواء على الصعيد المعرفي أو على الصعيد الحياتي، فمن يدخل إلى برج إيفل لن يراه كما يقول رولان بارت، وعلى المرء أن يحفظ مسافة ما عن الواقع كي يتاح له أن يحيط به على نحو بانورامي، وقد لا يكون العربي مؤهلا لمثل هذا، لأنه ما يزال ضحية استلاب وقهر لا حدود لهما. ولسنا ندعي بأية حال بأننا ننعم بالاستثنائية التي تتيح لنا مثل هذا الاجتراح، ولكن المحاولة تبقى درجة من الاجتهاد، ومن الكدح المشروع من أجل النجاة من هذا الاستلاب الذي قلب الوعي وحوله إلى سلاح مضاد، بحيث يصبح الجهل البريء أو ما يسمى بالجهل في درجة الصفر أرقى بكثير من الجهل المدجج بالزهو، أو الجهل الواثق الذي لا سبيل إلى الشفاء منه!

* * *

قد لا يدرك نابوكوف الناقد أو محترف المقدمات التبشيرية المكرسة لتصفية الحسابات مع ذكورة مغدورة في الصبا، أن ما يلحقه من أذى بضحيته ككاتبة ناشئة أكثر بأضعاف من الأذى الذي يمكن أن يلحقه بلوليتا ابنة الستة عشر عاما، فهو يعطب الجسد والذهن معا، ويخلق لدى الفريسة الماسوشية التي تستمرئ الخديعة نزوعا للمزيد من الإطراء، وهذا الإفساد قد ينتشي به نابوكوف لبعض الوقت، لكنه لن يدوم إلا إذا كان ملدوغا بسادية مزمنة!

و أغرب ما في الأمر، أن العكس لم يحدث حتى الآن وهو أن تكتب نساء متقدمات في السن مقدمات تدليكية لشبان صغار، سواء كانوا شعراء أو روائيين، وذلك لجملة أسباب منها ذلك السبب التاريخي المتعلق بالكيفية التي صاغ التاريخ فيها المرأة فهي ما تزال إلى حد ما ضحية ستة آلاف عام من أيديولوجيا الذكورة، والسطو المسلح باستحقاقات أيديولوجية ورعوية، وما أن حاولت أن تكسر ما سماه «هنريك أبسن» بيت الدمية حتى وجدت نفسها محاصرة من الجهات الخمس، جهة المرأة الأخرى صنيعة الاستبداد والاستعباد. وجهة الذكر الباترياك الذي نزع العباءة لكنه لم ينزع ما تحتها، وجهة السلطة السياسية لتي تعيش حتى الآن ما قبل اكتشاف البرونز وجهة التربويات الموروثة خصوصا ما هو شفوي منها ووعظيّ، أما الجهة الخامسة فهي جهة التاريخ الذي أصبح الماضي يتمدد فيه لقضم المستقبل!

* شاعر وكاتب من الاردن

رحلة عبد الوهاب المسيري.. قليل من الذاتية كثير من الفكر

القاهرة من سعد القرش:

يمكن لمن لم يقرأ أعمال الكاتب المصري البارز عبد الوهاب المسيري وهي متنوعة وغزيرة وأشهرها موسوعة (اليهود واليهودية والصهيونية) أن يجد في سيرته الذاتية الفكرية تلخيصا لرؤيته للعالم اضافة الى ما يعتبره نقاده تحولات من الماركسية الى الاسلام.

كان المسيري قبل اتجاهه الى دراسة ما يطلق عليه الظاهرة الصهيونية أستاذا للادب الانجليزي بجامعة عين شمس المصرية منذ حصوله على الدكتوراه من جامعة رتجرز الامريكية عام 1969 عن دراسة مقارنة بين الشاعرين البريطاني وليام ووردزورث (1770ـ1850) والامريكي والت ويتمان (1819ـ1892).

ومنذ أكثر من ثلاثين عاما وهو محسوب على اليسار ولكن البعض رأى في تحليل أعماله الاخيرة توجها يحسب لصالح التيار الاسلامي. والمسيري لا ينكر ذلك استنادا الى أن الانسان ظاهرة مركبة متعددة العناصر والابعاد كما يلح على هذا الامر في كتابه /رحلتي الفكرية.. في البذور والجذور والثمار/ الذي صدر متزامنا مع معرض القاهرة الدولي للكتاب الذي بدأت دورته الثامنة والثلاثون الثلاثاء الماضي.

ويقع الكتاب الذي أصدرت دار الشروق بالقاهرة طبعته الثانية في 760 صفحة كبيرة القطع. أما العنوان الفرعي لغلاف طبعته الاولى التي صدرت عام 2001 وكانت أقل حجما فهو (سيرة غير ذاتية غير موضوعية) لكن المسيري حذفه في الطبعة الجديدة وان ترك هذه الجملة في المقدمة.

ويبدو أن هذه الجملة حررت المؤلف من الالتزام بكتابة صارمة يتتبع فيها تصاعد الاحداث الشخصية وتراكم التجارب الخاصة من الطفولة الى الشباب الى سن الحكمة ليصبح الكتاب تقطيرا لخبرات مفكر ينظر من خلاله الى حياته وانجازاته بكثير من الرضا وان لم يصرح بذلك.

فقد كان المسيري في صغره عضوا بجماعة الاخوان المسلمين ثم عضوا في الحزب الشيوعي المصري لكنه ظل على مسافة ذهنية تسمح له بالنظر الى الامور بكثير من التجريد اذ يقول «وضعت جهازي العصبي داخل ثلاجة مدة ربع قرن. كنت أتباهى في أثنائها بأنني انظر الى وقائع الحاضر نظرة مؤرخ وأنني يمكنني أن أراقب العمال يغيرون رخام منزلي وأكتب في الوقت ذاته عن الفيلسوف الالماني» امانويل كانت.

وأضاف أن «الايمان داخلي لم يولد الا من خلال رحلة عقلية طويلة ولذا فايماني ايمان تأملي عقلي لم تدخل عليه عناصر روحية فهو ايمان يستند الى احساس بعجز المقولات المادية عن تفسير ظاهرة الانسان والى ضرورة اللجوؤ الى مقولات فلسفية أكثر تركيبية». ويوضح أنه اكتشف «الدين كمقولة تحليلية وليس مجرد جزء غير حقيقي من بناء فوقي ليس له أهمية في حد ذاته...المكون الديني ليس مجرد قشرة وانما هو جزء من الكيان والهوية».

هذا التأمل جعله يؤمن مثلا بأن المقولات الايديولوجية ربما «تكون قناعا يختفي وراءه الانسان بحيث يتحول الى عقل محض وقد يختفي الانسان تماما الى درجة أن يموت قلبا لا قالبا. ولذا تجدني لا أومن بالزيجات الايديولوجية ... تتحول بعد فترة الى ما يشبه اللجنة المنعقدة بشكل دائم».

ومنذ بداية الكتاب والمسيري يتحفظ لدرجة الرفض على فكرة أن يتلصص أحد على حياته الخاصة مشددا على أن الكتاب هو «رحلتي الفكرية كمثقف عربي مصري وليست قصة حياتي الخاصة زوجا وأبا وابنا وصديقا وعدوا... أحداث حياتي لا أهمية لها في حد ذاتها وانما تكمن أهميتها في مدى ما تلقيه من ضوؤ على تطوري الفكري».

يحكي المسيري أنه حين كان منتميا لفترة قصيرة من صباه الى الاخوان المسلمين اكتشف أن كثيرا من الشيوعيين في مدينة دمنهور (شمالي القاهرة) التي نشأ فيها كانوا أعضاء في حركة الاخوان قبل دخولهم الحزب الشيوعي والعكس بالعكس. وحينما كنت في دمنهور عام 1965 في أثناء العدوان الثلاثي (البريطاني الفرنسي الاسرائيلي) سمعت امام أحد مساجد دمنهور ينشد قصيدة لعبد الوهاب البياتي واكتشفت أن هذا الامام كان ملحدا».

وفي رأي المسيري أن أكبر الكوارث التي حدثت للمجتمع المصري في السنوات الاخيرة هي نتيجة تآكل الطبقة المتوسطة وما أدى اليه ذلك من احلال رابطة التعاقد محل قيمة مثل التراحم والتسامح قال انها كانت موجودة في فترات سابقة حتى أن الفرد يتعلم منها «أهمية الانسان ككائن حر نبيل وأهمية العواطف وأهمية الافصاح عنها. ولعل هذا يفسر حبي لافلام المخرج الياباني أكيرا كوروساوا فهي عامرة بشخصيات ملحمية لا تتردد في التعبير عن مشاعرها وتعيش حياتها على مستوى يليق بأبطال الملاحم».

من زاوية النظر هذه يرى المسيري الافراد والمجتمعات وفقا لقاعدة أو ثنائية التراحمية والتعاقدية. ويشير على سبيل المثال الى أن المجتمع الامريكي توجد فيه «جيوب تراحمية كثيرة. بل تتزايد أحيانا هذه الجيوب كرد فعل للتعاقدية...أما المجتمع الاسرائيلي فهو ليس مجتمعا عنصريا وحسب ولكن قوانينه أيضا عنصرية».

ولا يستند المسيري في حكمه هذا على معيار اسلامي اذ يقول انه عرف الصهيونية «لا من منظور عربي ولا من منظور توراتي يهودي وانما من منظور عالمي كجزء من التشكيل الحضاري الغربي وتاريخ الافكار في الغرب. الاشكاليات الفلسفية التي أثارتها الصهيونية بالنسبة لي كانت مثارة في حياتي قبل الاشتباك مع اليهود واليهودية والصهيونية».

وفي رأيه أن المحارق النازية (الهولوكوست) التي تعرض لها غجر ويهود والذين رأى النازي أنهم لا يفيدون مشروعه العنصري «جزء من التاريخ الاوروبي أي أنها ليست تجربة يهودية عامة وانما تجربة أوروبية خاصة».

ويتفق المسيري مع قرار أصدرته هيئة الامم المتحدة في السبعينيات يعتبر الصهيونية حركة عنصرية وشكلا من أشكال التمييز العنصري.

وبصورة أكثر ايجازا يقول «عدائي للصهيونية ينبع من عدائي لكل أيديولوجيات العنف والعنصرية مثل النازية... ولو اختفت اسرئيل من على وجه الارض أو تصالح معها كل العرب لظل عدائي للصهيونية كما هو».

ويعد المسيري من الكتاب المصرين القلائل الذين حظوا بالتكريم في حياتهم ففي عام 2000 نظمت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة مؤتمرا موسعا ناقش فيه مفكرون وباحثون من تيارات سياسية وأيديولوجية مختلفة موسوعته /اليهود واليهودية والصهيونية.. نموذج تفسيري جديد/ التي صدرت عام 1999 في ثمانية مجلدات.

كما نظمت كلية الاداب بجامعة القاهرة العام الماضي مؤتمرا عن مجمل أعماله في أدب الطفل والنقد الادبي والدراسات اليهودية بمناسبة صدور كتاب (في عالم عبد الوهاب المسيري.. حوار نقدي حضاري) ويقع في 1130 صفحة كبيرة القطع ضمن مجلدين يضمان دراسات كتبها أكثر من 80 مؤرخا ومفكرا عربيا وأجنبيا من ماركسين واسلاميين وليبراليين منهم محمد حسنين هيكل والمؤرخ الامريكي كافين رايلي رئيس جمعية دراسات تاريخ العالم بالولايات المتحدة مؤلف كتاب (الغرب والعالم) الذي صدر في مجلدين عام 1985 وشارك المسيري في ترجمته. (رويترز)